قصيدتان لجمال الدين بن الشيخ

تقديم وترجمة : أحمد عبد المعطي حجازي

جمال الدين بن الشيخ استاذ الأدب العربي بالسوربون ورئيس قسم الدراسات العربية بجامعة باريس ٨ Vincennes ، التقى به قراء «الآداب» كباحث وناقد مرتين. الأولى عندما نشرت «الآداب» بحثه «تحليل بنيوي تفريعي لقصيدة المتنبي: قضاعة تعلم أني الفتى» الذي ألقاه في مهرجان المتنبي الذي أقيم في بغداد من ٥ الى ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٧٧ ، والأخرى في المقابلة التي اجراها معه الكاتب العراقي ماجد السامرائي وتحدث فيها عن التحليل البنيوي التفريعي، وهو منهج جديد (بالنسبة لنا) في تحليل النصوص الأدبية يقوم على اعتبار النص كلا متكامل الأجزاء والعناصر، فلا بد للاحاطة بأبعاده وادراك مستوياته من تحليله إلى أبسط عناصره الايقاعية واللغوية والنحوية ثم اعادة تركيب هذه العناصر لاظهار العلاقات القائمة بينها والكشف عن دلالاتها الفرعية والمحورية. والاضافة التي يحاول ابن الشيخ تقديمها الى هذا المنهج الذي يعمل كثير من الباحثين والنقاد الغربيين على هداه اليوم، هي ان الباحث العربي يستعين ببعض مصطلحات النقد العربي القديم في نقل أصوله النظرية إلى اللغة العربية ، فضلا عن تطبيقه على شعرنا القديم والمعاصر .

لكنني أريد أن أقدم لقراء «الآداب» وجها آخر من وجوه جمال الدين بن الشيخ هو وجه الشاعر.

وفي عدد سابق من «الآداب» قدمت للباحث الفرنسي أندريه ميكيل قصيدة من نظمه باللغة العربية، واليوم أفعل العكس، وبالأحرى أقدم الوجه الآخر لذات المحاولة، فأترجم إلى العربية قصيدتين مما نظمه جمال الدين بن الشيخ بالفرنسية. ولا يخفى على القارىء أنني في كلتا المحاولتين مدفوع بالرغبة في معرفة نتائج هذا الحوار القائم بين عرب اليوم والغرب، والذي أجد نفسي مسرحا له هذه الأيام، فأنا أتحدث عن نفسي أحيانا من خلال حديثي عن أصدقائي الأقربين.

* * *

في قصائد جمال الدين بن الشيخ نبرات غنائية وعاطفية صريحة. ان أصوله العربية لا تخفي فعلها في شعره كما في نثره، فضلا عن اشتغاله بالدرس الجامعي. وتستجيب لغته الشعرية لهذه الأصول المختلفة، فهي ليست لغة مذهبية يمكن ردها إلى مدرسة فنية بالذات، وإنما هي لغة شخصية خاصة تكونت له اكتسابا كما هو المنتظر من عربي تعلم الفرنسية بعد أن ورث العربية من أسرته وبيئته الأولى، كما تكونت له اختيارا من مدارس وأساليب متعددة. وان لم يمنعه هذا من تجريب أساليب بالذات في قصائد معينة.

نشر ابن الشيخ قصائده في معظم الصحف والمجلات الفرنسية المعروفة : «لوموند» (٦ شعراء لسنة ١٩٧٤)، «أوربا» (عدد خاص للشعراء الفرنسيين)، «انتجرال» وغيرها.

أما كتبه المنشورة فهي مختارات من ابن خلدون، الشاعرية العربية (مأخوذ من رسالته التي حصل بها على دكتوراه الدولة) ثم خمريات أبي نواس.

فضلا عن ترجماته من العربية إلى الفرنسية. ويقوم ابن الشيخ حاليا بترجمة قصة المعراج من الفرنسية القديمة إلى الفرنسية الحديثة. وكان هذا الكتاب قد ترجم في العصور الوسطى إلى الاسبانية، ومنها إلى اللاتينية ومن هذه الى الفرنسية القديمة، ثم ضاع أصله العربي فيما ضاع من التراث العربي الأندلسي. وبقيت الترجمة التي ينتظر أن تكون مصدرا لنقل قصة المعراج إلى لغات عديدة منها العربية.

أرأيتم إلى هذه الدورة التي قطعها كتاب المعراج؟ ألا تفسر هذا المثقف العربي الذي دار حول ذاته دورة كاملة حتى عاد من جديد إلى اللغة العربية عبر الترجمة؟!

باريس- أحمد عبد المعطي حجازي

آية الليل

أبنى زمناً مجهولا
زمنا يتكلم ويتنفس
هارباً من ملاجئكم
مردوداً إلى دم القمح الحي.

الشارع من أجله يقدم جسده
ويعبق الخبز بروائح الغابات
وترسم الأيدي على زجاج النوافذ
بعد المضاجعة.
أعضاءً تناسلية سعيدة.

زمن يبقر بطن الاسمنت.
يطلق سرب أفاعيه الملونة.
طافرا إلى قمم المنارات.
حيث يمكث ساطعاً
على شفرات الصفائح الولود.
لَكم يوزع شقاءكم أنصبةً
على آلات عذابه
وينزع عن كلماتكم الأقنعة
ويكشف عما يرعبكم
حتى النخاع
لكم يهدد عالمكم
فيتساقط عنكم الحرير مزقا
وتتبدد أقوالكم شذرات
وتتصدع خزائنكم
يا رجالا من حديد

أبنى زمنا مجهولا
يبطل حساباتكم
وأنهض فيه
تحت سكون الفضاء الشفاف.

القصيدة المقلوبة

إني نهضت لأذهب بعيداً
لا تثقوا بالصمت الذي يطلع في الأعشاب
فسينقض يوماً على سرو الأراضي الحمراء
وعلى طول الجدران الفخارية
حيث تفيق البذور.

إني أكرّ خيط بَكرة
منتفخة في راحة يدي
بينما تغلق نافذة فاها
ألامس خاصرة الأزقة
حيث يهجع الصدى كعطر.
بجبينٍ ساطع أعطيكِ كلمة رجل
خطى المستقيم على طراوة مياه المحيط
وحروفي التي أحتفظ بها تحت جلدي
من أجل الفجر.
أعطيك فمي قاضمَ الشموس
وحضني البكر المترنم بذوبان الجليد
يا امرأة مكتوبة.
يا امرأة مقروءة
مضطجعةً في المحطة أمام آخر قطار
أعطيك بطن يمامة ليمامة.

لقد نهضت لأراكِ، آلمني جنبي الأيمن
ها هو زمن بعيد منه أتيت
فما كدت أتعرفك حتى كان عليّ
أن أطفىء المصابيح
عن نصف الشارع
وأن أتنفس ببطء
وأحتفظ بالمساء حول أجفاني
وألح على تجميد الحزن المتلهف.
للمستنقعات.

لست أذكر بعد، تنامين أنتِ
وقد عرفت أصابعك دائمًا.
شكل أحلامي
الخوف يصرف الآن بأنيابه تحت العجلات
هناك ربما سنبلة يمكن انقاذها
أنصتي، الريح تتقرا الطرقات
التينة ترفع المراسي
كل ما ليس له اسم يجيء فيتشكل
آه! ذلك الحرق الذي يَعشى على زجاج النوافذ
بيضة المساء السكرىٰ
صورة خُطاك
إني أمسك بقبضتي حياةً
تتنفس
هل هناك شخص غيري
يمدّني بعباءة عتيقة
تقلد الصمت؟